افنان القاسم: «العجوز»، ١٩٧٤.

ونستطيع القول، هنا، ان الرواية الفلسطينية استطاعت التعبير عن اللحظة الدامية في الوجدان العربي بصدق وزخم عال. ولا يمكن ان ندرس هذه الفترة دون ان نلحظ، بوضوح، ارهاصات التمرّد على الواقع؛ وهي ارهاصات ظلت تتوالد لسنوات طويلة تحت رماد الحاضر حتى نهاية الثمانينات، لتشتعل بعدها. وهي السنوات التي بدأت عقب نكبة ١٩٤٨ مباشرة وحتى انتفاضة القوى الشعبية في الارض المحتلة العام ١٩٨٧.

ولأن الروايات التي سبقت الانتفاضة مباشرة يمكن ان تمثّل لنا الارهاصات الاخيرة لهذه الاحداث[٨]، فسوف نوثر الاشارة اليها، وحدها، على اعتبار أن تلك الروايات تقترب، زمنياً، في فترة إصدارها، من الانتفاضة. وبهذا، فهي الى جانب كونها أقرب من غيرها تعبيراً عن الانتفاضة، فهي تختزل الفعل الابداعي الروائي للسنوات السابقة عليها. وفي هذا المجال، يقع اختيارنا على اثنين، هما اميل حبيبي[٩] وسحر خليفة[١٠]، واضعين في الاعتبار ان أعمال بعضهم (اميل حبيبي) تعود الى وراء، وهي لا تقل فنياً عن الأعمال الاخيرة. غير ان اختيارنا كان نابعاً من قرب هذه النصوص المتناولة الى فترة الانتفاضة في السنة الثالثة منذ قيامها. ومن هنا، فهي ترسم، بوضوح، ارهاصات الحركة الشعبية فيما بعد.

النبوءة

يمكن ان نعتبر اميل حبيبي من أهمّ الروائيين الفلسطينيين الذين عبّروا عن التحوّل الذي شهده المجتمع الفلسطيني في الستينات. فبعد ان كانت الوحدة العربية هي الطريق الى فلسطين، تحوّلت، الآن، عبر اتجاهات تنظيمية وتعبيرية كثيرة، الى ان تكون فلسطين هي الطريق الى الوحدة العربية. معنى ذلك، ان اميل حبيبي دعا الى الاعتماد على الذات الفلسطينية.

ويمكن ان نعثر على ذلك في روايتي حبيبي في الثمانينات. ففي «لكع بن لكع»، و«اخطية» يمكن ان نعثر على صورة فريدة من صور الاعتماد على النفس، في حين يمضي حثيثاً في رفض الواقع السائد حوله والتمرّد عليه داخل الارض المحتلة.

والرواية الاولى «لكع بن لكع»، وان ركزت على مناقشة قضايا أساسية كقضية الديمقراطية في العالم العربي والحرية، من حيث علاقتهما بالقضية الفلسطينية، فان قضيتها الرئيسة كانت حول القهر الذي يعاني منه الانسان الفلسطيني في الارض المحتلة، وهو ما كان يؤكد ان الروائي أسهم في استنبات بذور التمرّد، وسعى، مع غيره، حثيثاً لاستنباتها، وراح يحيطها بالظل والرعاية حتى ترعرعت ثمراتها في نهاية الثمانينات.

وربما كان الهمّ القومي وراء تفسير علو النبرة السياسية، التي قد تبدو احياناً انها تفوق النبرة الفنية، غير ان الامر مع حبيبي كان يدفع به الى تبنّي حيل فنية رائعة تعود بجذورها الى التراث العربي، ومن أهمّها حيلة «صندوق الدنيا»، من اقتناع مؤداه ان هذا الصندوق يحمل دلالة استعارية من التراث يمكن به الحرص على الهوية التي يراد لها ان تستلب من الفلسطيني في الارض المحتلة، وبوجه خاص اذا تعلّق الامر بالاولاد الصغار. ومن هنا، فان اهتمامه بالوسيلة يشير الى اهتمامه بدور الجيل الجديد في التصدي لهذه القوى المناوئة. وبهذا لا يصبح غريباً ان نسمع صاحب «الصندوق» يصيح من آن الى آخر: